ذكرى محمد علي الاكبر

وفيها خطاب من « جيرمي بنتهام (١) » الفيلسوف السياسي الانجليزي في سنة ١٨٢٨

هذه هي الذكرى الثالثة التي اكتبها في مثل هذا اليوم تخليداً لاسم بطل من ابطال القرن التاسع عشر الذين اشربت نفوسهم روح الثورة الفرنسوية فقاموا على اكتاف جنودهم من الشعب يؤسسون عروشاً ويقوّضون اخرى ويحاربون ضلالات العهد القديم من فوضى وامتيازات وتعصب وتقاليد. وما زالوا يعملون موفقين بين مصالحهم الذاتية ومصالح البلاد حتى شيدوا للنظام قلاعاً واثبتوا للعامة حقوقاً واقاموا للعدل والعقل والعلم محاكم ومدارس ومعاهد امتزجت فيها المذاهب وتوحدت امامها الطوائف فتكونت على اثر ذلك الوحدات القومية كل بمميزاتها الاستقلالية الخاصة

ولئن اظهر الابطال الوطنيون في اوربا المتنورة عبقرية نادرة المثال في اعمال الحرب والسياسة والتعمير فان محمد علي في مصر كان يجاهد وسط ظلمة حالكة وفساد مزمن شامل بعزيمة ماضية وثابة ما لبث ان تسرب تيارها الى نفوس ابنائه واحفاده والذين حوله فلم يمضِ ربع قرن من الزمان حتى نهضت مصر حربيًّا واقتصاديًّا واديبًّا واخذت مكانها في الحال وسط دول العالم المتمدن تشهد الملأ على اهليتها للاستمتاع بكامل حقها في الاستقلال

ولما كانت القوة اولى الفضائل التي تحترمها الدول وتعمل لها الحساب كله وكان لمحمد علي من القوة ما ظهر به في ميادين القتال على مشهد من اوربا عند « الدرعية » و « شندي » و « مسولجي » و « قونية » و « نصيبين » وكانت اوربا تعلم انهُ في استطاعتهِ ان ينفذ بالقوة ما لم تجبهُ اليهِ بالطف سارعت فنظمت صفوفها وحالت بين محمد علي وبين ثمرة انتصاراتهِ . وكان قد اصر على ان يستقل بمصر وسورية ويحكمهما بحق الوراثة في ذريتهِ

(١) جيرمي بنتهام الفيلسوف والمشرع الانجليزي الشهير في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ولد سنة ١٧٤٨ وتوفي سنة ١٨٣٢

عارض الدول وعارضته ووقفت مصر بمفردها في اكتوبر سنة ١٨٤٠ مستهدفة لضياع كل شيء الا الشرف الوطني . يا له من موقف هائل مزر باوربا مشرف لمصر ! اوربا التي اقامت استقلال اليونان واستقلال البلجيك وشيلي والمكسيك وباقي مستعمرات اسبانيا في امريكا تقف باساطيلها المتحدة امام سواحل الشام واسكندرية لترغم جيشاً منتصراً على قبول شروط الهزيمة ! ولماذا ؟ لان استقلال محمد علي في مصر وملحقاتها كان من شأنه ان يعكر السلام في اوربا المطمئنة ويثير فيها حرباً عالمية لم تكن الدول على استعداد لمواجهتها ! قالوا ذلك والحقيقة انهم كانوا ولا يزالون يكرهون قيام دولة قوية على ابواب الشرق تقف سداً منيعاً بين اوربا واسواقها ومستعمراتها في الشرق

ما كان لمحمد علي ان ينثني طوعاً امام تهديد اوربا ووعيدها بل وقف وقفة نابليون عند « واترلو » لما بات ينتظر « جروشي » اذ ظل محمد علي الى آخر ساعة ينتظر دخول فرنسا الحرب ضد الحلفاء حتى خاب امله في ذلك بسقوط وزارة المسيو تيبرس فاضطر الى قبول المفاوضة مع الحلفاء من غير ما هزيمة على اساس استقلال مصر الداخلي بحق الوراثة في اسرته حسب شروط معاهدة لندرة سنة ١٨٤٠ . وعلى ذلك ضاعت مجهودات محمد علي والمصريين في بلاد العرب وسورية وكريت وهي البلاد التي اخضعها محمد علي وكانت تابعة لتركيا . اما السودان الذي فتحته جنوده فتحاً فلم يكن يوماً ما تابعاً لتركيا ولذا احتفظ به محمد علي الى النهاية . ولقد كتب سفير انجلترا في فينا في ذلك الوقت الى المعتمد الانجليزي في مصر ينقل اليه رغبة الدول في ذلك فقال « اذا كان حقاً ان محمد علي لا يرمي الا الى تثبيت حق اسرته في ملكه فليس هناك مجال اوفق لتثبيت هذا الحق كاملاً من قارة افريقيا فهناك تنقلب اوربا صديقة له ويستطيع ان ينال منها الضمانات الكافية لسلامة ممتلكاته »

وليس ادل على عظيم اهتمام العالم بشأن محمد علي ونبوغه في حكم مصر من كتاب كتبه « بنتهام » الفيلسوف السياسي الانجليزي لمحمد علي يبسط فيه آراءه بخصوص ولي العهد والاستقلال والدستور . وصورة الكتاب محفوظة في مخطوطات المتحف البريطاني بلندره وقد عثرت عليه اثناء ابحاثي التاريخية فاثبت ترجمته

هنا بكل نقطه (٢) :

٢٨ ابريل سنة ١٨٢٨

من جيريمي بنتهام الانجليزي الى محمد علي باشا بمصر

يارئيس مصر :

عرفك الناس منذ زمن انك اكثر الامراء المسلمين تنوراً واشدهم رغبة في الاصلاح ولم يبقَ الاّ ان تعمل على بقاء هذه الاصلاحات وهذه الشهرة الذائعة. فانت في الحقيقة احد النجوم الساطع التي ظهرت في هذا القرن وما عليك الاّ ان تزين بجلال اسمك صفحات القرون المقبلة

واني سأنبئك بالوسائل اللازمة التي تخلد بها اسمك واصلاحاتك . لقد تحدثت مع ثلاثة من الذين عرفوك وخدموك مدة طويلة وهم بكنجهام الانجليزي وبرادش وترماس جالهواي مهندسك الامين ومنهم وقفت على دقائق تعيشك وسمو اخلاقك. ولقد قال لي جالهواي انك مثلي تدين بالمذهب النفعي (Utilitarianism) اديبًا وسياسيًا وان ما ترمي اليهِ من كل اصلاحاتك انما هو ترقية جميع الذين يعملون تحت سلطانك وابلاغهم اقصى درجات السعادة . وقد ذكر لي انهُ جاءك وهو لابس رداء العمل فلما علمت بوصولهِ لم تستنكف من مقابلتهِ بل تقدمت اليهِ وامسكت يدهُ . وهذا يا رئيس مصر منتهى مكارم الاخلاق ودليل على انك بعيد عن صفات التعاظم والكبرياء واني مثلك امقت الكبر وازدريهِ

تلك الوسائل التي اشرت اليها هي الدستور والاستقلال وحفيدك عباس الذي

(٢) كتاب بنتهام الى محمد علي المحفوظ في المتحف البريطاني بلندن هو نسخة من الكتاب الاصلي محفوظة ضمن اوراق اللورد بروتن Broughton (الميرجون كام هبهوس J. Cam Hobhouse) الذي كان كاتباً وسياسياً شهيراً ومعاصراً لبنتهام وتقلد منصب الوزارة في عدة وزارات . اما الكتاب الاصلي فقد حمله Galloway صديق بنتهام الى محمد علي وكان جالهواي مهندساً في خدمة محمد علي ولا بد ان يكون محمد علي قد اطلع عليه . والذي يهمنا الآن هو التحقق من وجود الكتاب الاصلي ضمن اكداس الاوراق في الخاصة الملكية على ما اظن والكتاب مكتوب في عدة صفحات بالآلة الفرنسوية المستعملة في ذلك الوقت . وخطه عادي وكتابته ظاهرة الا في بعض نقط قليلة

والصورة المنشورة ههنا تحوي كل نقط الكتاب وليست ترجمة حرفية له وما وضعته فيها بين قوسين فهو اضافة للايضاح

فيها دخل اسرائيل ارض كنعان اي قبل التاريخ المسيحي بالف وخمس مئة وخمس وسبعين سنة (١٥٧٥) وان يكون لهم يوبيل في كل خمسين سنة . وعدد اليوبيلات التي يجب الاحتفال بها ٧٠ يوبيلاً . واليوبيل ٥٠ سنة فالمجموع ٣٥٠٠ اي ١٥٧٥ + ١٩٢٥ . فاذا يحدث سنة ١٩٢٥

ان الكتب المقدسة تصرح بحقيقة معينة وهي ان ابراهيم واسحق ويعقوب وغيرهم من رجال الله القدماء سوف يقومون من الاموات وينالون النعمة الاولى. وعليه بتنا نتوقع ان نرى في سنة ١٩٢٥ رجوع رجال اسرائيل الاوفياء او نشرهم من الاموات ومنحهم اجساداً بشرية كاملة خالدة تكون ممثلة لنظام الاشياء الجديد على الارض . فموعد دورة اليوبيل يبتدىء عام ١٩٢٥ . وقد جاء في الانجيل قوله ان ايام الضيق على الارض تقصّر لاجل المختارين ولولا ذلك لم يخلص جسد فاذا قصرت خلصت اجساد كثيرة وبقي على الارض كثيرون من الذين اشار اليهم عنوان الكتاب اي « الملايين الذين هم احياء اليوم ولن يموتوا ابداً » . وليس المراد بذلك ان كل واحد يحيا الى الابد بل الذين عملوا الصالحات واطاعوا الله وحادوا عن الشرّ منهم . ثم ان الاتقياء الذين يكونون قد بلغوا من الكبر عتيًّا ترجع اليهم ايام شبابهم ويردون الى حالة الكمال جسماً وعقلاً

وليست الحركة الصهيونية في زعم الكاتب سوى مقدمة لازمة لمجيء المسيح الثاني اتماماً للنبوات فيجب تركها وشأنها لانها ان كانت من الله فقاومتها لا تجدي نفعاً وان لم تكن من الله سقطت من نفسها

والكتاب مذيل بجميع الآيات الواردة في التوراة والانجيل عن انتهاء العالم ومجيء المسيح الثاني وسائر ما لهُ علاقة بهذا الموضوع . وهي تملأ اربع عشرة صفحة بحرف صغير

هذا ما عنّ لنا نقلهُ عن الكتاب الذي بين ايدينا . ونكتفي في التعليق عليه بترديد ما قلناهُ في صدر هذا المقال وهو ان سنة ١٩٢٥ غير بعيدة عنا . فعسى الله ان يحيينا حتى نراها ومن يعش يره

ن . ش